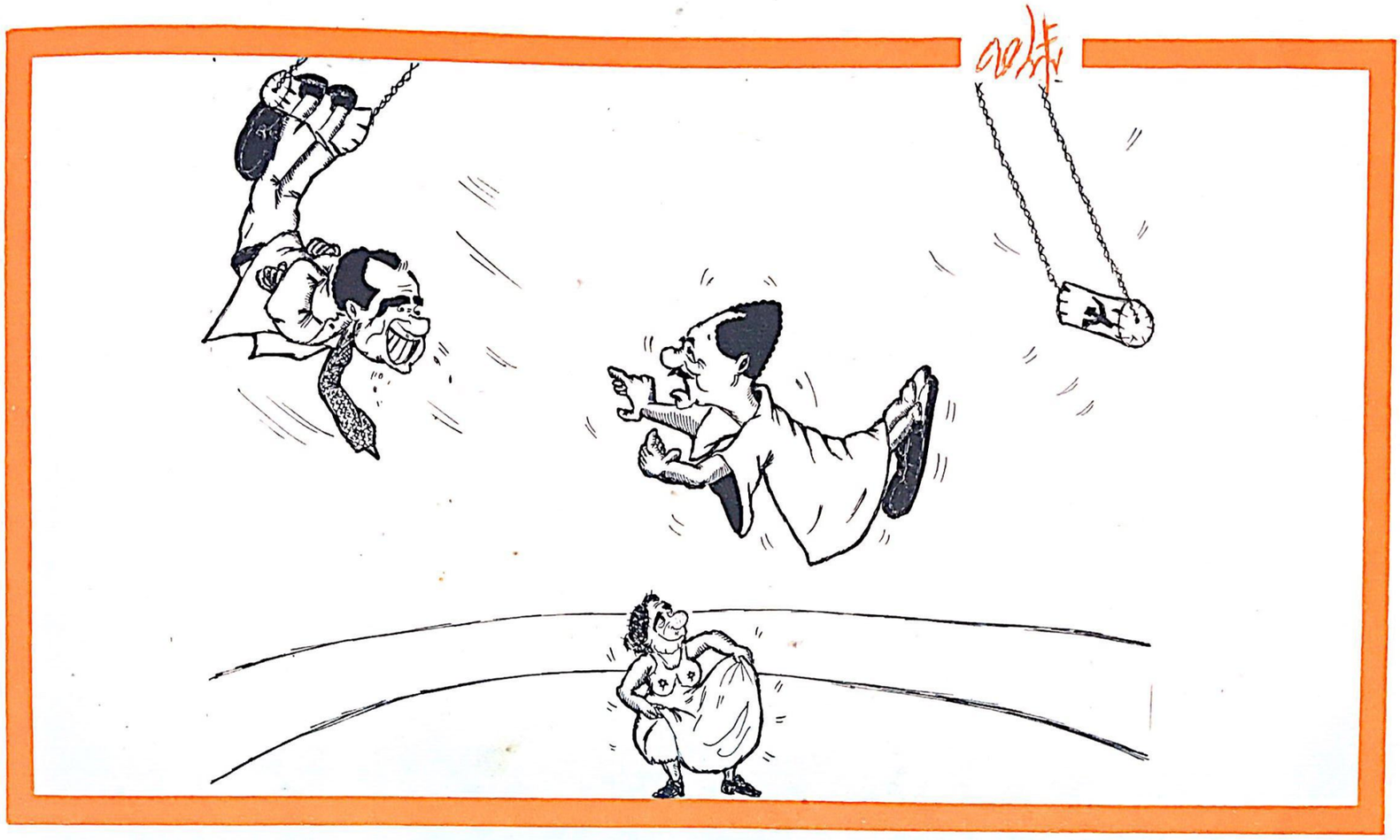

الأصول الطبقية لضياع بعض الأدباء والمثقفين "اليساريين"

● في جلسة خاصة مع بعض المثقفين والادباء « اليساريين » ، كان الحديث عن الاوضاع العربية الراهنة .. وكانت الخلاصة انه « لا امل اطلاقا » وان هذه الامة « عاقر » .. وهذا الشعب ذو طبيعة « استسلامية » .. وانه لا يلوح في الافق اي « بادرة نور » ..

حضور هذه الجلسة كان تجربة خاصة بالنسبة لنا .. لكنها اكدت ما كنا نشوفه من ضياع يتخبط فيه هذا الحيز « اليساري » من البرجوازية الصغيرة ، هؤلاء المثقفون والادباء « الثوريون » .. وكيف انهم فقدو ، امام توالي الاحداث ، ونشاط المرحلة الجديدة من الهجمة الامبريالية الصهيونية الرجعية ، فقدوا كل قدرة على التبصر في تلك الاحداث ، ورؤية القوى الاجتماعية التي تترجمها الى افعال .. وكذلك فقدوا القدرة على رؤية القوى الاجتماعية النقيضة والتي تشكل قوى الرد الكامن – حتى الان – على تلك القوى الاولى .

ان هذا الضياع عندما يشمل حتى ذلك الحيز المستنير من تلك الطبقة التي سيطرت على العمل الوطني طوال المرحلة الماضية – وما نزال الى حد ما – تطبعه بطابعها القلق والقصر النظر، يعني شيئا واحدا بالتاكيد هو مدى الافلاس الذي وصلت اليه تلك الطبقة . ومدى عجزها عن رؤية الطريق وكشف مجاهل الغد .. الامر الذي نزيد من مفودها عن قيادة النضال في هذه المرحلة ويثبت ضرورة ان تتصدى للحلول محلها قوى طبقية جديدة اكثر ثورية واكثر قدرة على مواجهة معضلات الوضع الراهن والمرحلة القادمة .

● ● ●

كان مستند المثقفين المشار اليهم في الوصول الى الخلاصات المذكورة هو القول التالي : حتى نحن الذين نرفض هذا الواقع نمارس رفضنا من خلال الحيز التي تتركه لنا القوى التي نرفضها.. انه رفض « شرعي » « ومدجن » لا يشكل خطرا على تلك القوى .. ولسنا نرى ما يبشر بولادة رافضين جدد يرفضون حتى هذا الحيز الرسمي من الممارسة ليبنوا ممارسات جديدة « لا شرعية » « وغير مدجنة » .. « وهنا يتجلى العقم » ..

● ● ●

كان الجواب على هذا القول : تتناسون انكم جزء من هذه الطبقة السائدة .. او حتى من هذه الطبقات السائدة ... وان رفضكم حتى قبل ان ينعكس في هذا الحيز « المشروع » كان وسيبقى محكوما بانه تعبير عن تناقض في داخل الطبقة الواحدة ، وليس تناقضا مضادا لها .. ان وجود تناقض بين طبقة وطبقة اخرى لا يلغي التناقضات الجزئية داخل الطبقة الواحدة ..

واذا انتقلنا من حيز التعميم الى التخصيص ، نقول لكم ان البرجوازية الصغيرة بوصولها الى الحكم في بعض اقطارنا العربية، كانت تملأ فجوة اجتماعية محددة لها تناقضاتها الرئيسية والجزئية :

فقد كانت ضد الرجعية التي تسلمت السلطة بعد « الاستقلال » لكنها ارتهنت لمصالح ومشيئة الامبريالية ، فتخلت عن مهماتها الكلاسيكية (التصنيع ، وتوحيد السوق الوطنية) مما جعلها قوة رجعية عاقر ، تحافظ على حجم المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي ورثتها عن المستعمر .. فتكون اداة كبح للقوى الاجتماعية واداة تعطيل لقوى الانتاج في المجتمع .. وبذلك تكون ايضا قد تخلفت عن دورها التاريخي وعن خلق نقيضها الذي هو الطبقة العاملة .. وهذا ما افسح المجال امام البرجوازية الصغيرة لتقود نضال الفلاحين والشغيلة الوطني .

ولكن البرجوازية الصغيرة ، ولانها قطاع اجتماعي متحول وقلق وغير متجانس يعتمد اسلوب الانتاج الفردي ، تكون عاجزة عن الانخراط في تنظيم ثوري بكل معنى الكلمة ، وبالتالي عاجزة عن خلق الاداة الثورية القادرة على تشكيل الدولة الثورية البديلة دولة الديمقراطية الاشتراكية الثورية . مما يجعل هذه الطبقة تلجأ الى جناحها الاكثر تنظيما لاقامة ديكتاتوريتها (انها طبقة لا تملك قوة الراسمال ، كما لا تملك قوة العمل) فهي مضطرة لفرض سلطتها بالقوة الخاصة والمطلقة (فرض سلطتها على الطبقة الرجعية وفرضها ايضا على الطبقات الثورية التي تشكل الخط التاريخي على تلك الديكتاتورية) ..

ولان البرجوازية الصغيرة كما قلنا لا تملك الراسمال ولا العمل فهي تمارس ،مصالحها الاقتصادية من خلال جهاز دولتها الديكتاتورية، وهذا ما يفسر ذلك النضخم الكبير للجهاز البيروقراطي .

غير ان مصالح هذه البيروقراطية (تماما كالبرجوازية الكلاسيكية) تنامى بازدياد الدخل الوطني ، اي بالتنمية والتصنيع .. وهذا ما يعطي للديكتاتورية البرجوازية الصغيرة فرصة القيام بالدور التاريخي الذي تخلت عنه البرجوازية ، وهو التصنيع وخلق النقيض ..

وخلال القيام بهذه المهمة تبرز التناقضات الجديدة :

اولا : ان القوانين التي شرعتها هذه الديكتاتورية لفرض سيطرتها على الراسمال والعمل، تغدو بنفسها عائقا امام تطور مصالح البيروقراطية بعد ان يكون قد حصل لدى اجزائها العليا تراكم راسمالي ينزع نحو الاستثمار الفردي « الحر » .

ثانيا : ان النقيض الذي تكون قد خلقته (البروليتاريا) يكون قد نما وتمركز واصبح في حاجة لرفع المرحلة نحو الامام اي للتقدم على ديكتاتورية البرجوازية الصغيرة .. فيجري الصدام الرئيسي بين ديكتاتورية البرجوازية الصغيرة المتراجعة حتى عن انجازاتها ، وبين الطبقة العاملة الصاعدة وصاحبة المصلحة في تجاوز ما وصلت اليه البرجوازية الصغيرة من انجازات .

وهذا الصدام يدفع بالبيروقراطية للارتماء في احضان التحالف مع الرجعية القديمة ومن ثم للارتماء ضمن دائرة مخططات الامبريالية.. وهنا نقع بعض شرائحها في الضياع امام التناقض الصارخ بين شعارات الطبقة وبين سلوكها المنحدر نحو اليمين ..

ثالثا : ان من منجزات ديكتاتورية البرجوازية الصغيرة ، ان تتسع دائرة التعليم وتشمل قطاعات واسعة جدا من الريف ، وهي بذلك تزيد من حجم نفسها ، غير ان هذه الزيادة تفدو اكبر بكثير من قدرة تلك الديكتاتورية على توسيع جهاز الدولة لامتصاصها .. وهنا يتبلور تناقض داخلي جديد بين شرائح الطبقة الواحدة ، بين المثقفين الجدد الذين لا يجدون حيزا لهم ديكتاتورية طبقتهم وبين تلك الديكتاتورية فيتحولون الى المعارضة ويتعرضون للقمع او التدجين في هذا الحيز او ذاك ... وهؤلاء المثقفون يعانون من عصاب نفسي خطير .. ففي مواجهة هذا التناقض تراهم لا يجدون لهم مكانا كافيا في نظامهم ، كما انهم لا يشعرون بدفع ذلك النظام لهم نحو الهبوط الى مواقع البروليتاريا التي لا يرغبون بها .. فتسيطر عليهم حالة من الضياع ويتخبطون ضمن دوامات اليأس ..

امام مجمل هذه التناقضات يأتي دور حزب الطبقة العاملة القادرة على وعي كل ذلك ، وبالتالي على تنظيم الطبقة العاملة وجعلها المحور والقائد لتحالف طبقي وطني تقدمي واسع يضم الى جانب الطبقة العاملة كلا من الفلاحين ويسار البرجوازية الصغيرة غير الحاكم ، والمدفوع من قبل الشرائح البيروقراطية الحاكمة الى مواقع الطبقات المسحوقة .

● ● ●

هذه هي الاصول الطبقية لضياع بعض الادباء والمثقفين « اليساريين » بكل ما تحركه هذه الاصول من مواقف سياسية، على مختلف الصعد الوطنية والطبقية ، القومية والاممية ، لا سيما في هذه المرحلة حيث اختتمت الديكتاتورية البرجوازية الصغيرة دورها مفسحة المجال لاحتدام الصراع من جديد بين القوى الاكثر ثورية من جهة والمتمثلة بالطبقة العاملة وحلفائها ، وبين القوى الاكثر رجعية من جهة اخرى والمتمثلة بالامبريالية والصهيونية والرجعية ■■

عدنان بدر